

• ثقافة لجميع الأولاد •

◆ القادم لمصر ◆

الإمام محمد بن ادريس الشافعي

وصفي آل وصفي • إبراهيم يونس





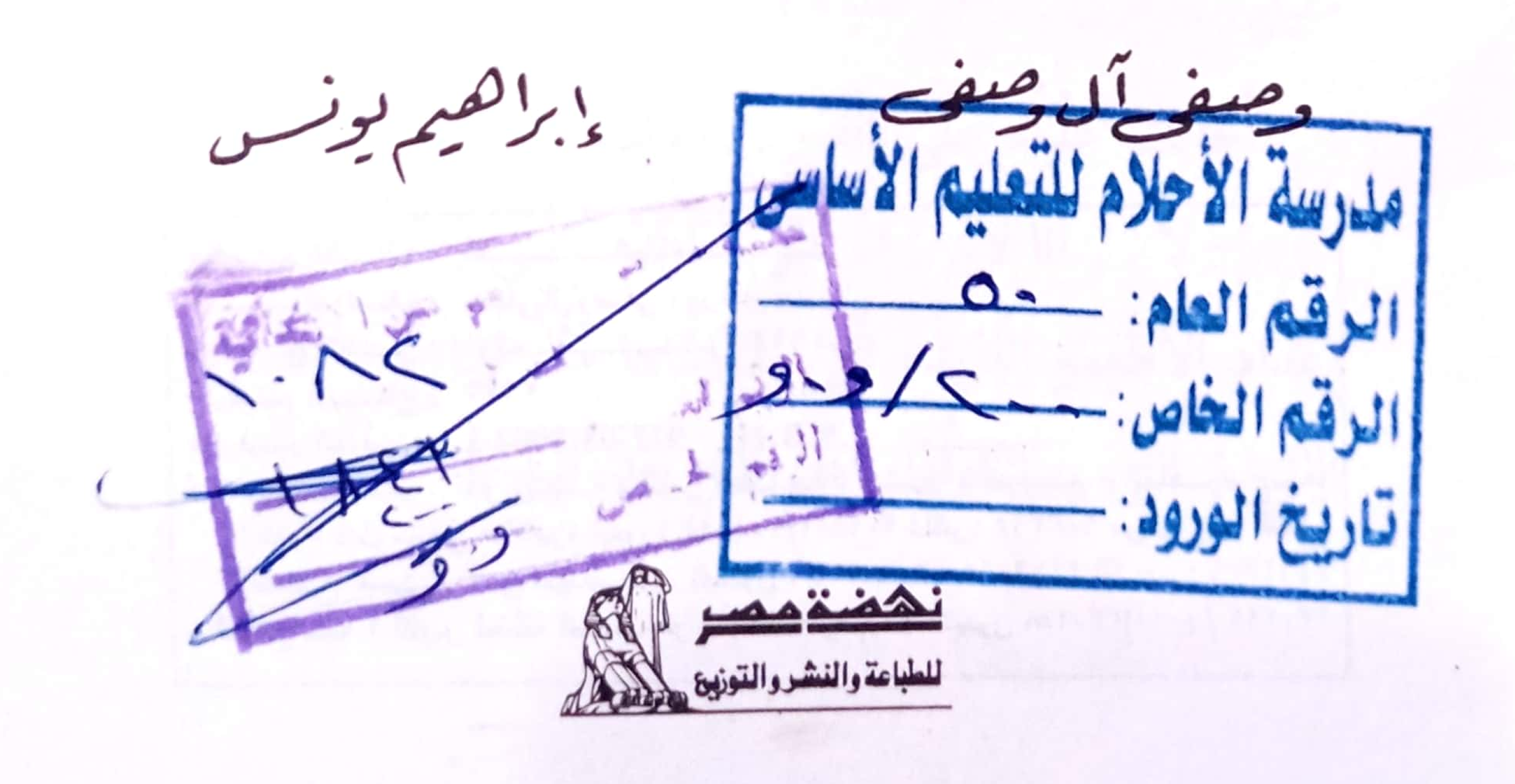
قوّاد وروّاد

القادم لمصر

الإمام محمد بن إدريس الشافعي

للأستاذين

وصفي آل وصفي — إبراهيم يونس



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

(١)

الْتَفَتَ « عَرَبِى » إِلَى وَالِدِهِ يَنْتَظِرُ الإِذْنَ فِى الْكَلَامِ . . كَانَ وَالِدُهُ يَتَحَدَّثُ إِلَى عَمِّهِ ، عَلَى حِين جَلَسَتْ أُمُّهُ وَامْرَأَةُ عَمِّهِ تَنْظُرَانِ إِلَيْه نَظَرَاتِ الإِعْجَابِ وَالتَّشْجِيعِ . . أَمَّا « عَلْيَاءُ » ابْنَةُ عَمِّهِ فَقَدْ أَمْسَكَتْ وَرَقَةً وَقَلَماً وَقَدْ بَدَا عَلَيْهَا الاِهْتِمَامُ بِمَا سَوْفَ يَقُول . .

كَانَتِ الْأُسْرَتَانِ قَدِ اجْتَمَعَتَا كَعَادَتِهِمَا فِى لَيَالِى « رَمَضَانَ » ، وَرَاحَ أَفْرَادُهُمَا يَتَسَامَرُونَ إِلَى أَنْ سَأَلَ وَالِدُ عَلْيَاءَ وَهُوَ يَضْحَكُ :

- مَنْ مِنْ عَالِمَيْنَا الصَّغِيرَيْنِ يُحَدِّثُنَا اللَّيْلَةَ بِمَوْضُوعٍ مُفِيدٍ . . عَرَبِى . . أَمْ عَلْيَاء ؟

أَجَابَتْ عَلْيَاء عَلَى الْفَوْرِ . . قَالَتْ :

- لَا . . أَنَا لَا . . أَنَا الْيَوْمَ سَاعَدْتُ أُمِّى وَامْرَأَةَ عَمِّى فِى إِعْدَادِ الْأَطْعِمَةِ اللَّذِيذَةِ الَّتِى تَنَاوَلْنَاهَا مُنْذُ قُلِيلٍ . . وَالْحَلْوَى اللَّذِيذَةِ الَّتِى سَنَتَنَاوَلُهَا بِإِذْنِ اللَّهِ بَعْدَ قَلِيل !

سَأَلَ وَالِدُ عَرَبِى :

– وَأَنْتَ يَا عَرَبِى ؟

فَقَامَ عَرَبِى وَهُوَ يَقُولُ :

– أُحْضِرُ مَا أَعْدَدْتُ . .

وَخَرَجَ إِلَى غُرْفَتِهِ فَتَبِعَتْهُ عَلْيَاءُ ، وَسُرْعَانَ مَا عَادَا مَعاً يَحْمِلُ عَرَبِى مُذَكَّرَاتِهِ وَتَحْمِلُ عَلْيَاءُ وَرَقَةً وَقَلَماً . .

وَأَنْهَى وَالِدُ عَرَبِى حَدِيثَهُ مَعَ أَخِيهِ ، وَتَحَوَّلَ إِلَى عَرَبِى يَبْتَسِمُ وَيَقُولُ

– حَدِّثْنَا يَا عَرَبِى . .

(٢)

قَالَ عَرَبِى :

– بَعْدَ أَنْ طَالَعْتُ سِيرَةَ الْأَئِمَّةِ الثَّلَاثَةِ : « أَبِى حَنِيفَةَ » . . وَ « مَالِكٍ » . . وَ « ابْنِ حَنْبَلٍ » ، وَجَدْتُ فِى مَكْتَبَةِ الْمَدْرَسَةِ كِتَاباً كَبِيراً عَنِ الْإِمَامِ « مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسٍ الشَّافِعِيِّ » نَقَلْتُ عَنْهُ مَعْلُومَاتٍ كَثِيرَةً دَوَّنْتُهَا فِى مُذَكِّرَاتِى . .

وَرَجَعَ إِلَى الْمُذَكِّرَاتِ ثُمَّ قَالَ :

– وَأَوَّلُ مَا اسْتَرْعَى نَظَرِى فِى تَارِيخِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ وُلِدَ فِى السَّنَةِ الَّتِى تُوُفِّىَ فِيهَا الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ ، فَعَوَّضَ مَوْلِدُهُ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ عَنْ فَقْدِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ أَبِى حَنِيفَةَ . .

وَكَانَ « إِدْرِيسُ الشَّافِعِيُّ » وَالِدُ الْإِمَامِ يُقِيمُ بِمَدِينَةِ « غَزَّةَ » ، مَعَ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُرَابِطُونَ عَلَى الْحُدُودِ اسْتِعْدَاداً لِلْجِهَادِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، عِنْدَمَا رَزَقَهُ اللَّهُ مُحَمَّداً عَامَ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ . لَكِنَّ الْوَالِدَ الْمُجَاهِدَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تُوُفِّىَ وَمُحَمَّدٌ يَخْطُو خُطُوَاتِهِ الْأُولَى ، وَتَرَكَهُ فِى رِعَايَةِ أُمِّهِ . .

مَاذَا تَفْعَلُ أُمُّ مُحَمَّدٍ بَعْدَ مَوْتِ وَالِدِهِ ؟

كَانَ زَوْجُهَا يَنْتَمِي إِلَى قَبِيلَةِ « قُرَيْشٍ » وَجَدُّهُ الأَعْلَى اسْمُهُ « الْمطَّلِبُ » وَهُوَ عَمُّ « عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » جَدِّ الرَّسول صلَّى اللهُ عليهِ وسَلم ، غَيرَ أَنَّهَا رَحلَتْ أَوَّلَ الأَمْرِ إلى مَدِينَةِ « عَسْقَلاَنَ » الْقَرِيبَةِ مِنْ غَزَّةَ لِتَعِيشَ بَيْنَ أَقَارِبَ لَهَا هُنَاكَ . ثُمَّ خَشِيَتْ أَنْ يَنْسَى مُحَمَّدٌ نَسَبَهُ الشَّرِيفَ إِذَا طَالَتْ إِقَامَتُهُ بِعَسْقَلاَنَ ، فَانْتَقَلَتْ بِهِ إِلَى « مَكَّة » . .

وَكَانَ بَيْتُ الْمَالِ يُعْطِي مُحَمَّداً الشَّافِعِيَّ رَاتِباً ، لكِنَّهُ كَانَ رَاتِباً قَلِيلاً لاَ يَكْفِي نَفَقَاتِ الْحَيَاةِ لَهُ وَلأُمِّهِ فَعَاشَا عِيشَةَ الْفُقَرَاء . .

سَكَتَ عَرَبِي يَنْظُرُ إِلَى مُذَكِّرَاتِهِ فَسَأَلَتْ عَلْيَاءُ :

– وَمَا « بَيْتُ الْمَالِ » هَذَا الَّذِي تُشِيرُ إِلَيْهِ وَلاَتَقِفُ لِتُوَضِّحَ لِي مَعْنَاهُ ؟ !

فَضَحِكَ عَرَبِي وَهُوَ يُجِيبُ :

– بَيْتُ الْمَال هُوَ خِزَانَةُ الدَّوْلَةِ ، وَكَمَا تَدْفَعُ خِزَانَةُ الدَّوْلَةِ

الْآنَ « مَعَاشَاتٍ » لِلمِصْرِيِّينَ الَّذِين لاَ دَخْلَ لَهُمْ يُنْفِقُونَ مِنْهُ . .
كَانَ بَيْتُ الْمَالِ فِى الدَّوْلَةِ الْإِسْلاَمِيَّةِ يُعْطِى رَوَاتِبَ لِلْفُقَرَاءِ مِنْ
قُرَيْشٍ وَمِنْ أَبْنَاءِ الْمُجَاهِدِينَ فِى سَبِيلِ اللَّه . .

(٣)

عادَتْ عَلْياءُ تَسْأَلُ :

- لكِنْ كَيْفَ رَبَّتْ أُمُّ مُحَمَّدٍ وَلَدَها بِالَّراتِبِ الْقَلِيلِ ؟

فَرَدَّ وَالِدُها يَقُولُ بِسُرْعَةٍ :

- فَعَلَتْ ما تَفْعَلُهُ جَمِيعُ الْأُمَّهاتِ الصَّالِحاتِ ، الْمُكافِحاتِ . دَبَّرَتْ ما اسْتَطاعَتِ التَّدْبير ، وَحَرَمَتْ نَفْسَها الشَّيْءَ الْكَثِيرَ ، لِتُدْخِلَ وَلَدَها الْكُتَّابَ مَعَ أَبْناءِ الْقادِرِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ . .

وَأَضافَ عَرَبِى وَكَأَنَّما يُكْمِلُ كَلامَ عَمِّهِ . . قالَ :

- كَما أَنَّ مُعَلِّمَهُ أُعْجِبَ بِجِدِّهِ وَاجْتِهادِهِ ، وَسُرْعَةِ حِفْظِهِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيم ، فَسَكَتَ عَنْ مُطالَبَتِهِ بِالأَجْرِ الَّذِى يَدْفَعُهُ زُمَلاؤُه . .

وَلَمْ يَتَأَخَّرْ ظُهورُ نُبُوغِه . .

أَتَمَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ وَسِنُّهُ سَبْعُ سَنَواتٍ ، وَأَخَذَ يُجَوِّدُ قِراءَتَهُ



أتَّم حفظَ القرآنِ وسِنُّهُ سبعُ سنوات

عَلى أَكْبرِ مُقْرِئي مَكَّةَ في ذَلِكَ الْوَقْتِ وَاسْمُهُ « إِسْمَاعِيلُ بْنُ قُسْطَنْطِينَ » . وَأَصْبَحَ لَهُ شَأْنٌ في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَهُوَ في الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ ، فَكَانَ يَجْلِسُ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِصَوْتِهِ السَّاحِرِ وَأَدائِهِ الرَّائِعِ وَسُرْعَانَ مَا يَسْتَوْلِي عَلَى قُلُوبِ سَامِعِيهِ وَيُؤَثِّرُ في نُفُوسِهِمْ حَتَّى تَتَسَاقَطَ دُمُوعُهُمْ وَتُبَلِّلَ لِحَاهُمْ !

كَانَ الشَّافِعِيُّ يُدْرِكُ أَنَّهُ ذُونَسَبٍ عَظِيمٍ ، يَتَّصِلُ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ، فَجَعَلَ يَسْعَى وَيَجِدُّ في التَّعَلُّمِ حَتَّى يَضُمَّ إِلَى شَرَفِ النَّسَبِ شَرَفَ الْعِلْمِ . حَرِصَ عَلَى أَنْ يُمْضِيَ أَطْوَلَ وَقْتٍ مِنْ أَيَّامِهِ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، يُجَالِسُ الْعُلَماءَ وَيَحْفَظُ الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ وَيَتَأَمَّلُ مَعَانِيَهِ . فَإِذَا رَجَعَ إِلَى دَارِهِ مَسَاءً اسْتَقْبَلَتْهُ أُمُّهُ بِحُبِّهَا ، وَأَشْعَلَتْ لَهُ الْمِصْبَاحَ لِيَسْهَرَ عَلَى ضَوْئِهِ جُزْءاً مِنَ اللَّيْلِ وَيَقُومَ بِتَدْوِينِ مَا حَفِظَ وَمُرَاجَعَةِ مَا سَمِعَ ..

وَمَضَتِ الأَيَّامُ فَإِذَا أَسَاتِذَتُهُ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ وَيَقُولُونَ : « هَذَا أَفْضَلُ فِتْيَانِ أَهْلِ زَمَانِهِ » ، وَإِذَا هُمْ يَأْذَنُونَ لَهُ في أَنْ يَجْلِسَ لِيَكُونَ أُسْتَاذاً في حَلْقَةٍ مِنْ طَالِبِي الْعِلْمِ . لَكِنَّهُ اخْتَارَ أَنْ

يَسْتَزِيدَ مِنَ الْعِلْمِ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ بِالتَّدْرِيسِ وَإِرْشَادِ النَّاسِ ، فَخَرَجَ إِلَى الْبادِيَةِ حَيْثُ تُقِيمُ الْقَبائِلُ الْعَرَبِيَّةُ عَلى فِطْرَتِهَا بَعِيداً عَنْ رَفاهِيَةِ الْمَدِينَة . نَزَلَ عَلَى قَبِيلَةِ « هُذَيْلَ » وَهِيَ قَبِيلَةٌ اشْتَهَرَتْ بِفَصَاحَةِ لُغَتِهَا وَكَثْرَةِ شُعَرَائِهَا ، وَعَاشَ بَيْنَ رِجَالِهَا فَتْرَةً طَوِيلَةً حَفِظَ فِيهَا عَشَرَةَ آلافِ بَيْتٍ مِنْ أَشْعَارِهَا وَفَهِمَ مَعَانِيهَا . وَفِي الْبَادِيَةِ تَعَلَّمَ رُكُوبَ الْخَيْلِ ، وَأَتْقَنَ الرَّمْيَ بِالْقَوْس . .

وأَفادَ الشَّافِعِي مِنْ ذَلِكَ كُلِّه . .

أَفادَ مِنْ دِرَاسَةِ اللُّغَةِ فكَانَتْ عِبارَتُهُ سَلِيمَةً وَدَقِيقَةً ، وَأَفَادَ مِنَ الشِّعْرِ فكَانَ يَسْتَدِلُّ بِهِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيم . . وَأَفادَ مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ فكَانَ يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى كَثْرَةِ أَسْفَارِهِ وَتَعَدُّدِ رِحْلاَتِهِ الَّتِي قَامَ بِهَا بَعْدَ أَنْ ذَاعَ صِيتُهُ . . وَأَفَادَ مِنَ الرَّمْيِ فكَانَ يَصِلُ إِلَى هَدَفِهِ حِينَ يَتَحَدَّثُ بِسُرْعَةٍ وَيُسْر . .

وَسَكَتَ عَرَبِي فَضَحِكَتْ عَلْيَاءُ وَهِيَ تَقِفُ وَتَقُولُ :

– قَبْلَ أَنْ يُحَدِّثَنا عَرَبِي عَنْ رِحْلاَتِ الشَّافِعِيِّ الْكَثِيرَةِ ، وَأَهْدَافِهُ الَّتِي كَانَ يَصِلُ إِلَيْهَا بِسُرْعَةٍ وَسُهُولَةٍ ، نَأْكُلُ الْحَلْوَى اللَّذِيذَةَ الَّتِي شَارَكْتُ فِي إِعْدَادِهَا بِعِنَايَةٍ وَاهْتِمَام !

(٤)

قَالَ عَرَبِى يَصِلُ حَدِيثَهُ عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِىِّ :

– كَانَ الْإِمَامُ « مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ » يُلْقِى دُرُوسَهُ بِالْمَسْجِدِ النَّبوِىِّ فِى « الْمَدِينَةِ » ، فَسافَرَ الشَّافِعِىُّ وانْضَمَّ إِلَى تلاَمِيذِهِ . . وَدَرَسَ كِتَابَهُ « الْمُوَطَّأ » . .

وَهُنَا ضَحِكَتْ عَلْيَاءُ وَقَالَتْ :

– أَعْرِفُ كِتَابَ الْمُوَطَّأَ ، وَأَنْتَ تُحَدِّثُنَا عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ أَخْبَرْتَنِى أَنَّ الْمُوَطَّأَ يَعْنِى الْمُيَسَّرَ الَّذِى يَسْهُلُ فَهْمُه !

فَابْتَسَمَ عَرَبِى وَقَالَ :

– رَجَعَ الشَّافِعِىُّ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَكَّةَ وَجَلَسَ يُدَرِّسُ فى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَجَذَبَتْ طَرِيقَتُهُ الْجَدِيدَةُ فى التَّدْرِيسِ عَدَداً كَبِيراً مِنَ التَّلاَمِيذ . كَانَ يَبْدَأُ بِإِلْقَاءِ الْأَسْئِلَةِ فَيُجِيبُ التَّلاَمِيذُ إِجَابَاتٍ يَخْتَلِفُ فِيها بعْضُهُم عَنْ بَعْضٍ ، عِنْدَئِذٍ يَسْأَلُ كُلاًّ مِنْهُمْ أَنْ يُبَرْهِنَ عَلَى مَا يَقُولُ . . وَفِى النِّهايَةِ يُقَدِّمُ هُوَ

الْإِجَابَةَ الصَّحِيحَةَ وَيَسْتَدِلُّ عَلَيْهَا بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَسُنَّةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم ..

نَظَرَتْ عَلْيَاءُ وَفِي عَيْنَيْهَا سُؤَالٌ ، فَأَسْرَعَ عَرَبِي يَقُولُ :

- وَسُنَّةُ الرَّسُولِ هِيَ أَعْمَالُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وَأَحَادِيثُهُ الشَّرِيفَة . .

وَقَالَ وَالِدُ عَلْيَاءَ يَزِيدُ كَلَامَ عَرَبِي وُضُوحاً :

- وَسُنَّةُ الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمُ تُعَلِّمُنَا كَثِيراً مِنْ أَحْكَامِ الدِّين . .

فَهَزَّ عَرَبِي رَأْسَهُ مُؤَيِّداً كَلَامَ عَمِّهِ ، ثُمَّ قَالَ :

- كَانَ الشَّافِعِي يَقُولُ لِتَلَامِيذِهِ : « مَنْ لَا يُحِبُّ الْعِلْمَ فَلَا خَيْرَ فِيه » ! لكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُثْقِلُ عَلَيْهِمْ كَثِيراً ، وَكُلَّمَا أَحَسَّ مِنْهُمُ السَّأَمَ أَوِ الْمَلَلَ رَوَى لَهُمْ بَعْضَ الْفُكَاهَاتِ فَيَضْحَكُونَ وَيَنْشَطُون . .

مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ لِتَلَامِيذِهِ يَوْماً . . قَالَ : « كَانَ لِرَجُلٍ ابْنٌ أَبْلَهُ فَبَعَثَهُ يَوْماً يَشْتَرِي حَبْلاً طُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعاً . . فَقَالَ الابْنُ لِأَبِيهِ : طُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعاً فِي عَرْضِ كَمْ يَا أَبِي ؟

قَالَ الْأَبُ : فِى عَرْضِ مُصِيبَتِى فِيكَ ! » . .

وَضَحِكَ الْجَمِيعُ . .

وَبَيْنَمَا عَرَبِى يقَلِّبُ مُذَكِّرَاتِه قَالَتْ عَلْيَاءُ :

– أَشَرْتَ إِلَى رِحْلاَتٍ كَثِيرَةٍ يَقُومُ بِهَا الشَّافِعِىُّ ، وَلَمْ تُحَدِّثْنَا إِلاَّ عَنْ وَاحِدَة !

فَضَحِكَ عَرَبِى وَقَالَ :

– ذَاتَ يَوْمٍ اسْتمعَ وَالِى « الْيَمَنِ » إِلَى الشَّافِعِىِّ فَأُعْجِبَ بِعِلْمِهِ إِعْجَاباً شَدِيداً ، وَعَرَفَ أَنَّهُ فَقِيرٌ فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْحَلَ إِلَى الْيَمَنِ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ هُنَاكَ أُمُورَ دِينِهِمْ وَيُؤَدِّى لَهُ فِى الْوَقْتِ نَفْسِهِ بَعْضَ الْأَعْمَالِ . وَقَبِلَ الشَّافِعِىُّ عَرْضَ الْوَالِى وَسَافَرَ مَعَهُ إِلَى جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَيْثُ ذَاعَ صِيتُهُ وَأَحَبَّهُ النَّاسُ ، وَأَنْجَزَ مَا أُسْنِدَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالٍ فَأَثْنَى عَلَيْهِ الْوَالِى وَمَنَحَهُ مُكَافَأَةً سَخِيَّةً . .

وَهَكَذَا عَادَ الشَّافِعِىُّ إِلَى مَكَّةَ وَمَعَهُ عَشَرَةُ آلَافِ دِينَار ! لَكِنَّهُ لَمْ يَمْكُثْ بِمَكَّةَ طَوِيلاً . .

فَرَّقَ مَالَهُ عَلَى الْمُحْتَاجِينَ مِنْ تَلاَمِيذِهِ وَمُحِبِّيهِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ

غيْرُ خمْسِينَ دِيناراً ، ثُمَّ شَدَّ الرِّحالَ إِلَى « بَغْدَاد » . وَ هُنَاكَ اتَّصلَ بتلامِيذِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ « أَبى حَنِيفَةَ » وَقَرَأَ ما كَتَبُوهُ عَنْ عِلْمِ أُسْتاذِهِمْ ، ونَسَخَ مِنْهُ الشَّىْءَ الْكَثِيرَ حَمَلَهُ إِلَى مَكَّةَ . .

وَفِى مَكَّةَ أَقَامَ يُدرِّسُ أَحَدَ عشَرَ عاماً ، يَفِدُ إِلَيْهِ طُلاَّبُ الْعِلْمِ مِنْ جَمِيعِ أَنْحاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلاَمِيِّ وَيأْتِى الْحُجَّاجُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ كُلَّ عامٍ فَيَستَمِعُونَ لِحَدِيثِهِ وَيَنْقُلُونَ عِلْمَهُ وَأَخْبارَهُ إِلَى بِلاَدِهِمْ . .

وَكَانَ الْإِمَامُ « أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ » مِنَ الَّذِينَ يَجْلِسُونَ فى حَلْقَةِ الشَّافِعِىِّ وَيَأْخُذُونَ عَنْهُ الْعِلْمِ . .

عِنْدَئِذٍ قَالَتْ عَلْيَاءُ تُخاطِبُ الجميعَ :

– تَعْرِفُونَ طَبْعاً الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَل ! وَتَعرِفُونَ كَيْفَ رَفَضَ أَنْ يَخْضَعَ لِرَغْبَةِ الْخَلِيفَةِ « الْمَأْمُونِ » سَابِعِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّين فَسَجَنَهُ الْمَأْمُون . .

وَضَحِكَتْ وَهِىَ تُضِيفُ بِسُرْعَةٍ :

– حَدَّثْتُكُم أَنَا بِذَلِكَ مِنْ أُسْبُوعَيْن !

فَضَحِكَ الْجَمِيع . .

(٥)

أكْمَلَ عَرَبِى حَدِيثَهُ عَنِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ الشَّافِعِىِّ ، قَالَ :

– وَحَنَّ الشَّافِعِىُّ إِلَى السَّفَرِ فَقَصَدَ الْعِرَاقَ مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَفِى مَسْجِدِ بَغْدَادَ تَجَمَّعَ النَّاسُ يَنْهَلُونَ مِنْ عِلْمِهِ .. فَأَثَارَ ذَلِكَ اسْتِيَاءُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ وَحَاوَلُوا أَنْ يَسْأَلُوهُ فِى مَسَائِلَ صَعْبَةٍ كَىْ يُحْرِجُوه ! لَكِنَّهُ تَغَلَّبَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِهِ الْغَزِيرِ ، وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى كَانَ طُلَّابُ الْعِلْمِ بِجَامِعِ بَغْدَادَ يَحْتَشِدُونَ فِى حَلْقَةٍ وَاحِدَةٍ حَوْلَ الْإِمَامِ الشَّافِعِى ..

وَبَعْدَ عَامَيْنِ عَادَ إِلَى مَكَّةَ ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى بَغْدَادَ مَرَّةً ثَالِثَةً .. لَكِنَّهُ لَمْ يُقِمْ بِهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ غَيْرَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ اسْتَعَدَّ بَعْدَهَا لِلسَّفَرِ إِلَى « مِصْر » !

وَفِى مِصرَ اتَّخَذَ الشَّافِعِىُّ مَجْلِسَهُ بِجَامِعِ « عَمْرو بْنِ الْعَاصِ » وَبَهَرَ الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ بِعِلْمِهِ وَأَدَبِهِ وَفَصَاحَتِهِ ، فَالْتَفَّ حَوْلَهُ طَالِبُو الْعِلْمِ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ وَمِنْ أَبْنَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِىِّ

الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كُلِّهِ . وَكَانَ يُقَسِّمُ وَقْتَ الدَّرْسِ فَتَرَاتٍ ، فَيَبْدَأُ بِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ثُمَّ يَتَنَاوَلُ حَدِيثَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. وَفِى الْفَتْرَةِ الثَّالِثَةِ يَتْرُكُ لِتَلَامِيذِهِ حُرِّيَّةَ الْمُنَاقَشَةِ فِى مَعَانِى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ .. وَفِى الْفَتْرَةِ الرَّابِعَةِ وَالْأَخِيرَةِ كَانَ يُدَرِّسُ الشِّعْرَ وَالنَّحْوَ وَسَائِرَ عُلُومِ اللُّغَةِ ..

سَأَلَتْ عَلْيَاءُ فِى دَهْشَةٍ :

- هَلْ كَانَ الشَّافِعِىُّ يُدَرِّسُ لِتَلَامِيذِهِ كُلَّ تِلْكَ الْمَوَادِّ ؟

فَأَجَابَ عَرَبِى مُؤَكِّداً :

- أَجَلْ ، كَانَ الشَّافِعِىُّ مُحِيطًا بِكُلِّ تِلْكَ الْعُلُومِ . . وَمُلِمًّا بِالْكَثِيرِ مِنْ مَسَائِلِ الطِّبِّ وَالْفَلَكِ أَيْضاً !

وَقَدْ أَلَّفَ مِائَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ كِتَاباً فِى فُرُوعِ الدِّينِ وَالْأَدَبِ . مِنْهَا كِتَابٌ مَشْهُورٌ جَمَعَ فِيهِ الْمَسَائِلَ الْهَامَّةَ الَّتِى بَحَثَهَا وَسَمَّاهُ « الْأُمَّ » . . فَكَأَنَّمَا هُوَ أُمُّ الْكُتُبِ وَالْبُحُوثِ الْأُخْرَى !

وَسَكَتَ عَرَبِى قَلِيلاً . ثُمَّ أَغْلَقَ مُذَكِّرَاتِهِ وَهُوَ يَقُولُ :

- عَاشَ الشَّافِعِيُّ فِى مِصْرَ أَرْبَعَ سَنَوَاتٍ ، ثُمَّ تُوُفِّيَ يَوْمَ الْخَمِيسِ الثَّامِنِ وَ الْعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ ٢٠٤ الْهِجْرِيَّةَ - ٨١٩ الْمِيلَادِيَّةَ - وَدُفِنَ يَوْمَ الْجُمعَةِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِى الْمَوْضِعِ الَّذِى بُنِيَ عَلَيْهِ مَسْجِدُهُ الْمَعْرُوف . .

وَأُطْلِقَ اسْمُهُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى دُفِنَ بِهِ . .

وَبَلَغَ نَبَأُ مَوْتِهِ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ فَقَالَ : « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » . . كَانَ الشَّافِعِيُّ كَالشَّمْسِ لِلدُّنْيَا وَ كَالْعَافِيَةِ لِلنَّاس !



فخرجُ إلى البادِيَة